آسف ... متشكر

من الكلمات التى يكثر سماعها فى هذه الأيام هاتان الكلمتان Sorry—Thank you "آسف ... متشكر" ونسمعها نحن سكان خط حلوان أكثر من سكان الجهات الأخرى بسبب كثرة الجنود والضباط الانجليز فى هذا الخط .

ما يكاد أى من هؤلاء تلمس قدمه قدمك، أو يصيب طرف كسوته طرف بذلك أو يكون مسرعا فى الصعود أو النزول من القطار فيحتك بك حتى تسمع فى سرعة اللفظة الأولى ، مع إشارة من وجهه تحمل معناها اللطيف .

وما تكاد تؤدى له أصغر خدمة أو رعاية ، كأن تدله على الطريق أو تفسح له مكانا بجوارك أو تراه مستعجلا فى النزول من القطار أو الصعود إليه فتدعه يسبقك أو تترجم لغته إلى بائع البرتقال الذى لا يفهم ما يريد ... حتى تسمع اللفظة الثانية مع ابتسامة تؤيد معناها .

وفى بعض الحالات يكون بعضهم فى حالة سكر شديد لا يملك معها ضبط حركات يديه أو قدميه ، ولكنه يملك مع هذا ضبط ألفاظه وملامحه حين يبدر منه وهو فى حالته هذه ما يستدعى الاعتذار أو يبدو منك له ما يستحق الشكر ولا سيما انجليز الجزيرة الأصلية .

وليست كلمة آسف أو متشكر مجرد لفظة تقال و إلا فقدت معناها ، ولكنها دليل على التهذيب الشخصى وعلى معرفة حقوق المجتمع و احترام الآخرين ، فالرجل الذى يعتذر لأنه صدمك صدمة خفيفة عن غير قصد لا يمكن — وهذه عقليته — أن يفكر فى الاعتداء عليك أو على مالك .

وليس هؤلاء الجنود جميعا مثقفين ثقافة عقلية ، ولا هم جميعا من بيئات راقية ولكن التربية الاجتماعية العادية هى التى توحى إليهم بهذا التصرف المهذب على الرغم من أن حياة الجندية الخشنة كثيرا ما تقضى على رقة المعاملة .

أذكر هذا وأذكر بجواره ما يصادفنا فى المجتمع المصرى فى كثير من الأحيان فأرى أننا فى حاجة ماسة إلى التنبيه إلى آداب السلوك الأولية التى لا يعيش المجتمع بدونها .

كم مرة يذكر القارئ المحترم أن ماء قذرا صب فوقه من النافذة وهو يسير آمنا فى الطريق العام ، أو كومة من القمامة غمرت رأسه وملابسه ، أو عقب سيجارة نسع قفاه وكاد يشعل ملابسه ، أو قلة ماء قذعت رأسه . ثم نظر إلى أعلى حيث تهبط عليه هذه القذائف فرأى

وراء النافذة أو الشرفة رأسا يطل وينزوى صامتا خائفا فى بعض الأحيان أو ضاحكا ساخرا فى بعض الأحيان، دون أن يسمع كلمة اعتذار واحدة تخفف من وقع هذه المصيبة على نفسه.

وكم مرة كنت أيها القارئ المحترم تجلس فى الترام والمقاعد مملوءة وإذ برجل ضخم يصعد ثم يأخذ يلزك لزا ليفسح لنفسه مكانا ، ثم يضع نصفه فى المكان الذى أخلاه بزحزحتك عنه، ونصفه فوق فخذك . فإذا تململت أو ثقل عليك العبء فنهضت لتفسح له المكان نظر إليك شزرا لأنك أخجلته بين الركاب !

وكم مرة كان القارئ الكريم سائرا فى الطريق ثم أحس بصدمة عابثة تكاد تخلع كتفه ثم تلفت فإذا رجل سائر هنالك بسرعة كبيرة وهو يلتفت خلفه ليرى ماذا صنع به دون أن ينطق بكلمة واحدة !

أو كان واقفا فى الزحام وإذا قدم ضخمة تسحق قدمه ورجل هو صاحب هذه القدم يزيحه بعنف وهو يهرس رجله هرسا ، ليشق طريقه فى الزحام ؟ !

وكم مرة تذكر أيها القارئ المحترم أنك سمعت كلمة " متشكر " ممن يستعيرون منك علبة الثقاب فيشعلون سجائرهم، ثم يردونها إليك صامتين ، أو وهم ملتفتون فى جهة أخرى إلى أصحابهم يحادثونهم ! أو ممن يسترشدونك عن الطريق فترشدهم ثم يمضون دون أن يلقوا بالهم إليك ! أو ممن يستعيرون منك جريدتك على غير معرفة فى القطار أو الترام فيقرؤونها فى أناة وتمهل وتدقيق حتى إذا هممت بالنزول قبلهم تركوك واقفا تنتظر وقد يفوتك النزول فى المحطة التى تقصدها ، لأنهم لم يفرغوا بعد من قراءة جريدتك ، وقد يسلمونها لك أخيرا وكأنهم يستثقلون دمك لأنك استعجلتهم ، ولم تظل راكدا حتى ينتهوا من مهمتهم !

أما أنا فأذكر مرة أنى كنت أسير مرة بباب اللوق فوق الطوار . فأحسست بصدمة خفيفة من عجلة سيارة كان يوقفها بدوى ، ولم أكن قد التفت إليه بطبيعة الحال لأنى لست فى ممر السيارات . فلما التفت وجدت صاحب السيارة الضخمة قاضيا كأنه ينتظر منى الاعتذار عن صدمى لعجلات سيارته !

ولم أقصر فى إعطائه الدرس الذى يستحقه مثل هذا التصرف ، لأن التسامح مع هؤلاء هو الذى يملى لهم فى إهمال آداب السلوك ، وفى عدم رعاية الحقوق الواجبة للمجتمع .

وقص على أحد سكان مدينة حلوان — وهو رجل صاحب مزرعة بالقرب من حلوان البلد — أنه بينما كان جالسا فى الدار الريفية بجوار المزرعة قدم إليه أحد الفلاحين ومعه ضابطان كبيران من الجيش الانجليزى المعسكر بالقرب من هناك كانا قد سألا هذا الفلاح عن الطريق فلم يفهم لغتهما فجاء بهما إلى محدثى هذا ليتفاهم معهما .

وقد اعتذرا أولا عما اذا كانا قد سببا إقلاقه بمجيئهما بلا إخطار سابق ثم رجواه فى أن يدلهما على طريق معين لأنهما يريدان بعض المناورات المحلية و يجهلان المكان ... و بعد أن دلهما على ما يريدان دعواه الى تناول الشاى معهما فى خيمتهما القريبة من مزرعته فى يوم مقبل وانصرفا يكرران الشكر مرة ومرة .

و بعد غروب اليوم نفسه كان عائدا الى حلوان المدينة ، و بينما هو فى الطريق سمع من ينادى : " إنت يا ولد يا للى ماشى هناك " فحسب أن المنادى لا يعنيه لأنه ليس "ولدا" ولكن النداء تكرر فى الظلام فالتفت نحوه فاذا هى سيارة من السيارات العسكرية، وإذا أحد ركابها يسأله : " فين شارع زكى باشا ؟ " فاقترب من السيارة واذا بها "أوتوباشى ونفران"، ولم يتوان صاحبنا أيضا فى إعطاء هؤلاء الدرس اللائق فى آداب السلوك وأن يقص عليهما قصة الضابطين الانجليزيين التى وقعت له منذ ساعات .

هذه الأمثلة التى أسلفتها تدل على النقص الذى نعانيه فى الآداب الاجتماعية الأولية، ونحن معذورون — الى حد — فى هذا النقص، فالجهل الذى يعانيه ثمانون فى المائة من الشعب وإهمال الإرشاد الاجتماعى ممن يقدرون عليه ، وتسامح المجتمع فى حقوقه إزاء العابثين بها وعدم اهتمامنا بهذه الآداب السلوكية مع أطفالنا فى المنزل أو فى المدرسة كل أولئك يشترك فى هذه الجفوة والخشونة وهذا الاستهتار فى سلوكنا اليومى .

ومن الواجب أن نعلم أطفالنا عن طريق القدوة هذه الآداب فى سلوكنا اليومى معهم ومع زائرينا وأصدقائنا أمامهم ، بل مع الخدم الذين يقدمون لنا مطالبنا . فليست كلمة "متشكر" لخادمك حين يقوم لك بخدمة مما يتنافى مع سلطة "الأسياد" وثق أنها ستشعره بالارتياح والمحبة لك والإخلاص فى خدمتك .

وكذلك يجب أن تكون كلمة متشكر وكلمة آسف وكلمة من فضلك أو أرجوك . . . وأمثالها من القاموس الشخصى للدرس بين تلاميذه فى المناسبات التى تقتضيها، و بين الرئيس ومرءوسيه فى الديوان ، بل بينه و بين الخدم والسعاة ، فان هذه الكلمات لن تنقص من هيبة المدرس أو الرئيس ، بل هى على العكس تخلق شعورا لطيفا بالاحترام والمودة .

وقبل أن ننثر هذه الألفاظ فى المجتمع ، يجب أن نقوى فى نفوس الأفراد روح الجماعة ونشعرهم بحقوقها ، حتى تكون هذه الألفاظ صدى للشعور الحقيق وليست كلمات جوفاء تلقى دون قصد أو تفكير .